

القدرة النصية: مقاربة تعريفية عامة

أ. سعيد أراق (المغرب)

في مجال العلوم الإنسانية بشكل عام، يشهد عود التخصصات المعرفية كلما ترسخت قدرتها على نحت مفاهيمها الخاصة، وبناء شبكة مصطلحاتها، من أجل توظيفها إجرائيا، وتحويلها إلى آلية اشتغال وبحث واستقصاء. ويمكن القول إن العلوم الإنسانية ليست في نهاية المطاف إلا شبكة من المفاهيم والمصطلحات وهي في حالة توظيف واستنفار وتجل واشتغال؛ فعلم النفس الفرويدي مثلا ليس سوى الكثافة النظرية المترتبة معرفيا عن اشتغال مفاهيم الوعي واللاوعي والليبيدو، بدون هذه المفاهيم لم يكن بإمكان علم النفس الفرويدي أن يحقق هويته النظرية والمعرفية التي عُرف بها، وما زال يعرف بها إلى حد الآن؛ إن "المفهوم الدقيق والواضح، والكلمات المفهومة هما الشرطان الضروريان لإخراج الأفكار إلى حيز الوجود"⁽¹⁾ كما يقول جوزيف

جوبير Joseph Joubert.

لكن المفاهيم ليست أفكارا بالمعنى المباشر للكلمة، بل هي فرضيات معرفية أو مبادئ نظرية توجه الفكر، وتضبط مجال ومستويات احتكاكه بموضوعه؛ فمفهوم "اللانهائي" مثلا اقتضته حاجة إنسانية وأنطولوجية للدلالة على "الكائن الذي لا يمكن أن نتصور وجود كائن أكبر منه"، وقد تحول هذا المفهوم في التقليد المسيحي إلى مجال للتفكير اللاهوتي، وأولهُ القديس أنسيلم saint Anselme بأنه مفهوم دال دلالة حصرية على الذات الإلهية⁽²⁾، ثم استعارت الرياضيات هذا المفهوم لبناء فرضيتها حول "اللانهائي الرياضي" l'infini mathématique. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لمفهوم "اللانهائي"، فإن مفهوم "الإلكترون" بدوره ليس إحالة على واقع عيني وبقيني متحقق تجريبيًا، لكنه يمثل فرضية معرفية توفر الإمكانية الإجرائية اللازمة لبناء النظريات العلمية.

إن مفهومي "اللانهائي" و"الإلكترون" مفهومان ينطويان على حمولة ميتافيزيقية واضحة، ورغم ذلك يستعملان في الرياضيات والفيزياء، لأن بدون

هذا النوع من المفاهيم لا يتاح للعلوم أن تسبر غور العلم، أو تضطلع بكشف خفايا المعرفة.

وفي مجال العلوم الإنسانية، لا يمكن للفكر كذلك أن يتعرف على شواهد، ويتحقق من آثار حركته أو سكونه إلا بتوليد وحصر المفاهيم الدالة عليه، والفاعلة به وفيه، لذلك كله كانت المفاهيم ضرورية لكل أشكال العلوم والمعارف الإنسانية، لأن العلم حين يُولَّد مفهوما جديدا يكون -في واقع الأمر- بصدد طرح إمكانية جديدة للمعرفة، والوعي المستجَدُّ بالظواهر، والإدراك المُستأنَف للأشياء، وربما تكون لهذه الفكرة علاقة بما قاله ألبير جاكار Albert Jacquard : "إننا لا نرى العالم بأعيننا، لكننا نراه بمفاهيمنا"⁽³⁾.

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن التفكير في المصطلحات التي نصادفها في المجال الذي نحن بصده، وهو مجال تحليل الخطاب، قد يفتح الباب أمام بعض التساؤلات التي نطرحها هنا على سبيل الدفع بالمستويات الإشكالية إلى أقصى حدودها فحسب، أي دون الخوض في محاولة الإجابة عنها، لأن مدار هذا المقال يظل مدارا ضيقا يتمحور حول التعريف بمفهوم القدرة النصية، مع فتح بعض الأقواس الإشكالية الموازية كلما تطلب الأمر ذلك، ومن بين هذا التساؤلات: هل تحليل الخطاب تحليل بالمفاهيم أم تحليل للمفاهيم؟ وبمعنى آخر: هل تحليل الخطاب يبني خطابه باعتباره خطابا بانيا للمفاهيم أم خطابا مفككا للمفاهيم؟ هل القدرة النصية قائمة قيام تحقق أم قيام تمثّل واقتراض؟ ألا يحتاج مفهوم القدرة نفسه من حيث هو خطاب إلى مقارنة جدية تقوم بتحليل خطابه، والكشف عن خلفيات تشكّله، ودلالة كل ذلك على المستوى الإبستمولوجي المرتبط بمجال التفكير اللساني واللغوي بوجه عام؟

لعل هذه الأسئلة تؤكد أن مفهوم القدرة النصية لا يمكن الإمساك به وفهمه إلا بالكشف عن علاقته القائمة أو المفترضة بفلسفة علوم اللغة، وبالفتوحات اللسانية الجديدة التي استمدت بعض فرضياتها من مجال الفلسفة، ومجال علم النفس الإدراكي، وسوسيولوجيا التواصل، والدراسات الثقافية cultural studies الخ، لكن هذا المستوى الإشكالي يفتح على مسارات نظرية وتحليلية تتجاوز إطار هذا المقال، لذلك سنكتفي هنا بالوقوف عند التعريف بمفهوم القدرة النصية، وعلاقتها بلسانيات النص وتحليل الخطاب.

هناك ملاحظتان قد تستوقفان كل من يلج مجال تحليل الخطاب ولوج فضول أو استقصاء:

1- تحليل الخطاب مجال معرفي جديد، ويبني خطابه المعرفي عبر شبكة واسعة من المفاهيم، لكنها ليست مفاهيم جديدة، بل مفاهيم قديمة خاضعة لإعادة الطرح والتوظيف؛ إنها ذلك القديم وقد تَحَلَّى من جديد بعنفوان مستعاد.

2- مفاهيم تحليل الخطاب مفاهيم متحفزة ومشرعة على مدارات واسعة جداً، لدرجة يصعب معها استقصاء حدود المجال المعرفي الدالة عليه، لكن المفارقة هي أن تحليل الخطاب يبدو أحياناً أوسع مدى من مفاهيمه، ربما لأن مجال الخطاب ليس مجال المعرفة النصية المحدودة والجزئية، بل هو مجال المعرفة التي تدرس الإنسان باعتباره ظاهرة قولية كلية.

لكن ما يهمني في هذا المقال هو طرح تحليل الخطاب عبر مدخل نظري محدود جداً هو مدخل "القدرة النصية"، من خلال السؤالين المتداخلين التاليين:

— ما هو مفهوم القدرة النصية؟

— ما هي علاقتها بلسانيات النص أو تحليل الخطاب؟

— ما هو إطارها الإشكالي والفلسفي العام؟

تؤكد فيرونيك كاستيلوتي Véronique Castellotti في مقال لها يحمل عنوان "مفهوم القدرة في اللغة" La notion de compétence en langue أن حين نبحث عن تعريف لمفهوم القدرة، نلاحظ أن الباحثين والدارسين لا يتفقون حول تعريفه تعريفاً موحداً حتى داخل نفس الحقل الدراسي⁽⁴⁾، ونجد نفس الرأي تقريباً عند بيرنار هيلو Bernard Hillaud الذي يقول: "إن تحديد مفهوم القدرة ما زال إلى حد الآن غير يقيني، كما أن استعمال هذا المفهوم يخلق نوعاً من الحرج، ويعطي الانطباع أن الأمر يتعلق بشطط في استعمال اللغة حين نتحدث عن مفهوم يدركه الجميع حدسياً، لكن ليس بإمكان أيٍّ أحد أن يتحدث عنه بوضوح تام. إن مفهوم القدرة غامض، ويحتاج إلى توضيح، خاصة أن الاستعمال الإجرائي لهذا المفهوم يميل إلى الانتشار في شتى المجالات ذات الصلة بالنشاط الاجتماعي"⁽⁵⁾

ولاشك أن الاختلاف في تعريف مفهوم القدرة، يجعل منه مفهوماً متعدد الحقول الدلالية، ويقع في مفترق تخصصات متباينة، وهذا يقودنا إلى استحضار الربط الذي أقامه فانسون كوفمان Vincent Kaufmann بين المفهوم المتعدد الدلالات والمعرفة المتشظية⁶ savoir émietté، فكلما غطى المفهوم مدى دلالي متبايناً وموسعاً، كلما كانت طاقته الدلالية التمثيلية تعكس واقعاً معرفياً قائماً على تشظير المعرفة، وإحداث قطائع وحدود بين مكوناتها المترابطة، مما

يوحي بأن المفهوم ينطوي على تناقضات داخلية يصعب حسمها معرفياً، لكن هذه القضية تظل في كل الأحوال مرتبطةً بواقع معرفي قائم في مجال العلوم الإنسانية بشكل عام، وهي قضية لا تهمنا في هذا السياق إلا من زاوية التدليل – بشكل عابر – على أن مفهوم القدرة يظل مفهوماً إشكالياً بدون شك.

وإذا حاولنا ربط مفهوم القدرة بمرجعية معرفية تناسب موضوع هذا المقال، يمكن القول بدون تردد إن مفهوم القدرة يأخذنا مباشرة إلى النحو التوليدي الذي يفترض أن "السلوك اللساني للمتكلم المستمع يتحدد عبر مفهومين متلازمين هما: القدرة *compétence*، أو المعرفة اللسانية التي يتوفر عليها المتكلم المستمع، والإنجاز *performance* أو التحقق الملموس لهذه المعرفة اللسانية في سياق الأوضاع التواصلية، سواء تعلق الأمر بالإرسال (الذات تنشئ جملاً) أو التلقي (الذات تفهم جملاً)" (7).

وعلى هذا الأساس، فإن مفهوم القدرة تأصل معرفياً في حقل اللسانيات التوليدية، ودل عند شكومسكي على "القدرة على إنتاج جمل وفق نموذج نحوي *grammatical*، وتمييز الجمل غير النحوية *a-grammatical* التي قد تحضر في الجمل التي يرسلها الآخرون" (8).

وتؤكد ماري فرانس إيرليش Marie-France Ehrlich أن أنحاء النص التي تطورت في ألمانيا من خلال أعمال هايدولف Heidolph (1966)، وإيزنبرغ Isenberg (1968)، قادت إلى الانتباه إلى أن "نحو الجملة عاجز عن تفسير بعض الظواهر التي تتدخل في بناء متواليات من الجمل، مثل الإحالة القبلية أو التعريف أو التقديم والتأخير، الخ، فظهرت الحاجة إلى وصف البنية العامة للنص، مع افتراض وجود قدرة نصية عند المتكلم المستمع... وقد توجهت هذه الأعمال الأولى المتعلقة بنحو النص إلى استichاء أعمال شومسكي، ونتائج الدراسات المتعلقة بالدلالة التوليدية" (9).

لقد نتجت لسانيات النص (التي سميت في البداية بـ "نحو النص") عن رغبة الباحثين في الخروج من إطار الجملة الذي كانت لسانيات دوسوسير تشتغل داخله، والانتقال إلى ما كان باخيتين يسميه (تركيب الكتل اللفظية الكبرى) (10) *la syntaxe des grandes masses verbales*، وكان هذا الانتقال بمثابة تحول وانتقال من مستوى الجملة التي تمثل وحدة قابلة للوصف، إلى مستوى النص الذي يمثل وحدة قابلة للتأويل. ويؤكد كارل كانفا Karl Canvat

في هذا السياق وجود ثلاث فرضيات تحدد الإطار النظري العام للسانيات النص، وهي:

- 1- الذوات (المتكلمة/الكاتبة) تملك قدرة نصية.
- 2- النص نتاج بنية مضاعفة: بنية أولية (من خلال نسق اللغة)، وبنية ثانوية (من خلال تحويل البنية الثانية إلى خطاب)
- 3- اللاتجانس الداخلي لكل نص ينتظم بشكل متواز على مستويين:
 - مستوى عام (البنيات الكبرى)
 - مستوى محلي (المقاطع)¹¹

ومعنى هذا أن القدرة النصية هي الفرضية النظرية الأولى التي تركز عليها اللسانيات النصية، وهي قدرة تتدخل في إنتاج النصوص المكتوبة والشفوية، لكن ماري فرانس إيرليش تؤكد أن الطرح النظري الأول لمفهوم "القدرة النصية" في مجال تحليل الخطاب ورد في أعمال إيزنبرغ Isenberg انطلاقاً من سنة 1970⁽¹²⁾، ثم استعار فان ديك هذا المفهوم وطور حمولته النظرية، ودقق ملامحه الإجرائية حين ربطه بقدرة المتكلم المستمع على توليد النصوص مقابل قدرة توليد الجمل عند شومسكي، وفي هذا الإطار يقول فان ديك: " بما أن الذات المتكلمة يمكنها إنتاج/تأويل عدد لانهائي من الخطابات المختلفة، فإن قدرة الذات المتكلمة قدرة نصية بالضرورة، ومن المستبعد، بل من المستحيل أن يتم إنتاج وتلقي الملفوظات النصية من خلال متوالية غير منظمة من الجمل المنفصلة عن بعضها البعض، لأن في هذه الحالة لن يكون بالإمكان بتاتا الحديث عن قضية الانسجام⁽¹³⁾".

وفي ضوء هذه المعطيات الأولية، لا يمكن فهم القدرة النصية إلا بربطها بقضية الانسجام التي اهتمت بها اللسانيات النصية اهتماماً خاصاً منذ ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، وذلك حين "أصبحت فكرة اعتماد قواعد محددة للتعرف على ما يجعل النص نصاً، وليس مجرد متوالية اعتباطية من الجمل، فكرة مركزية في الأنحاء النصية التي سادت في عقدي الستينيات والسبعينيات، والتي ركزت على ثنائية النحوية النصية la grammaticalité textuelle واللاحوية النصية l'agrammaticalité textuelle من أجل إبراز العناصر التي تضمن استرسال النص وتواليه⁽¹⁴⁾".

لقد طرح الانسجام باعتباره تجليا لقدرة نصية يتوفر عليها المتكلم المستمع، واعتبر فان ديك أن هذه القدرة ليست قدرة جُمْلِيَّة competence phrastique بل هي قدرة نصية compétence textuelle، وهي التي "تجعل المتكلم المستمع قادرا على إنتاج وتأويل عدد لا نهائي من الخطابات، وتمييز متواليات الجمل المقبولة بوصفها نصوصا منسجمة، عن متواليات الجمل التي لا تستوفي شرط النصية، وتتيح القدرة النصية للمتكلم المستمع كذلك تحديد أوجه التشابه بين النصوص التي تختلف ظاهريا عن بعضها البعض، وتتيح له أيضا شرح النصوص وتلخيصها، ومعنى هذا أن التعامل مع النصوص بوصفها (كلا) هو المظهر الجوهري للقدرة النصية التي لا يمكننا في غيابها أن نتعرف على أنواع النصوص⁽¹⁵⁾"، ويميز بان D.Bain وبرونكارت P.Bronckart ووشنويلي B.Scheneuwly بين القدرة النصية العامة compétence textuelle générale التي تركز على معرفة آليات اشتغال النصوص المختلفة، والقدرة النصية النوعية compétence textuelle spécifique التي ترتبط تحديدا بأنواع محصورة من النصوص التي يتعامل معها الشخص⁽¹⁶⁾.

ويتكامل مفهوم القدرة النصية عند فان ديك مع مفهومين متلازمين هما: البنية الصغرى la microstructure والبنية الكبرى la macrostructure، فـ"البنية الصغرى هي بنية سطح النص الذي يعتبر متوالية منظمة من الجمل المتتابعة، والبنية الصغرى تتعلق بالجمل الفردية، وبعلاقة هذه الجمل فيما بينها على المستوى الصرفي، والفونولوجي، والتركيبى، والتمثيلات الدلالية العميقة بمعناها التوليدي... أما البنية الكبرى فهي البنية/العميقة للنص، وهي بنية موازية ومجردة، وهي تتخذ شكل تمثيل دلالي يحدد دلالة النص من حيث هو وَحْدَةً كلية⁽¹⁷⁾".

ويربط جون ميشيل آدم القدرة النصية بوظيفة محددة تتمثل في رواج النصوص في المجتمع، يقول جون ميشيل آدم في هذا الصدد: "من أجل أن تعرف النصوص طريقها للتداول في المجتمع، لا بد من التسليم بوجود قدرة نصية لدى الذات المتكلمة والكاتبة، وهذه القدرة النصية هي التي تجعل هذه الذات قادرة على إنتاج وفهم الموضوعات اللفظية les objets verbaux التي تملك سمة النصانية⁽¹⁸⁾ le caractère de la texticité"، بل إن كريستوفر لاي

كونري Christopher Leigh Connery يربط القدرة النصية بالسلطة، إذ يؤكد أن القدرة النصية كانت بمثابة سلطة موازية للسلطة السياسية في الصين أثناء العهد الإمبراطوري، وكانت هذه القدرة النصية تتوفر عند النخب الوطنية والمحلية الصينية، وكانت نابعة من استئناسهم بالكتب الكلاسيكية والنصوص الأخرى، وكان ذلك يمنحهم قدرة كبيرة على التأليف والكتابة في شتى الأجناس والأشكال النصية، ويمنحهم بالتالي مكانة متميزة في المجتمع، ووضعاً اعتبارياً مقترنا بسلطة فكرية ورمزية واسعة⁽¹⁹⁾.

لكن مفهوم القدرة النصية يظل رغم ذلك مفهوماً ملتبساً، ربما لأنه مفهوم متعلق جوهرياً مع مفهوم النص الذي يظل في كل الحالات مفهوماً غير محدد بدقة، لذلك يقول دوني أبوطيلوز Denis Apothéloz: "إن طرح سؤال ما هو النص؟ قد يعتبر سؤالاً مستفزاً أو غير مُجَدِّ بالنظر إلى أنه سؤال مفرط في العمومية، لذلك ربما يكون من الأجدر طرح السؤال بصيغة أكثر دقة من خلال التساؤل عما يجعل متواليه من الجمل التي يتفق الجميع على أنها تمثل نصاً مختلفة عن متواليه من الجمل التي يتفق الجميع على أنها لا تمثل نصاً، لكن مهما كان الجواب عن هذا السؤال، فإن مجرد طرحه يفترض أننا جميعاً - من حيث كوننا ذواتاً متكلمة- نملك قدرة معينة تسمح لنا بالتمييز بين النص واللائص، وهذه القدرة هي التي تبني قدرتنا اللغوية وقدرتنا على التواصل"⁽²⁰⁾.

إن استعمال اللغة والتواصل باللغة لا يرتكزان ارتكازاً محايثاً على معرفة معجم اللغة، وقواعدها الصرفية والتركييبية، بل لابد كذلك من معرفة نصية موازية، وهذه الفكرة تؤكدتها مارينا شيني Marina Chini بقولها: "لا يمكن أن يكفي المتكلم المستمع بمعرفة القواعد الصرفية والتركييبية، ومعرفة معجم اللغة من أجل التنظيم السليم لملفوظاته وخطابه. لقد بينت العديد من الأبحاث ضرورة توفر المتكلم المستمع على قدرة نصية ومرجعية موازية (كارول وفون 1997 Carroll & von Hendriks)، وهذه القدرة النصية هي التي توجه المتكلم المستمع إلى معرفة البنيات التركييبية المناسبة لقصده التواصل، ولطريقة تنظيم النص أو المعلومة المناسبين لسياق معين"⁽²¹⁾.

من هذه الزاوية يمكن القول إن القدرة النصية ترتبط بوظيفة متعددة المستويات والأوجه، تتمثل في: الوظيفة التواصلية المرتبطة بالقصد التواصل،

الوظيفة التنظيمية للنص أو ما يمكن أن نعبر عنه بتلاحم النص، والوظيفة التداولية المرتبطة بإنتاج النص في ضوء شروطه ومحدداته السياقية. ومن أجل الافتتاح على رأي آخر بصدد مفهوم القدرة النصية، يمكن استدراج كلام مارك سوشون Marc Souchon الذي يقول: "إننا نعتبر أن القدرة النصية تنشأ انطلاقاً من تجارب الشخص، أي تلك التجارب المرتبطة باحتكاكه المتواصل والدائم بالنصوص، لذلك تفترن القدرة النصية بأبعاد فردية واجتماعية وثقافية، ويمكن أن تُجزأ إلى مجموعة من المعارف والمهارات والتمثيلات، والواقع أن المدرسة تقوم بدور كبير في تحديد الطريقة التي تتطور بها القدرة النصية عند المتعلمين، لكن من الخطأ الاعتقاد أنها تتطور فقط عبر عملية التمدرس... إن القدرة النصية ليست قدرة ثابتة، بل هي دائمة التشكل والتطور في ضوء علاقتها واحتكاكها بالواقع المعيشي اليومي لكل شخص⁽²²⁾".

وعلى هذا الأساس، يتبين أن القدرة النصية ليست قدرة فطرية و**compétence innée**، بل هي قدرة تقع تحت طائلة الاكتساب والتشكل والبناء، وذلك عكس القدرة اللغوية. وقد سبق لـ "مايكل ألبير" Michael Albert أن ناقش (في مقال بعنوان "النحو الكلي واللسانيات" La Grammaire universelle et la Linguistique) قضية اللغة في ضوء علاقتها بالفطرة أو الاكتساب، معتبراً أن الكائنات الإنسانية تتوفر على نوع من "الوظائف الذهنية الإنسانية" *fonctions mentales humaines* التي تمثل "فرضيات فطرية" *hypothèse innée* وعلى رأسها اللغة، وانتقل من هذا المعطى النظري الأولي لصياغة ما سماه "إشكال أفلاطون" *problème de Platon*، ويتمثل في ما يلي: "الأشخاص الذين يعرفون لغة ما يعرفون كذلك النحو الكلي، كيف ذلك؟ إنه سؤال يعبر عما نسميه إشكال أفلاطون الذي استعاده برتراند راسل، وطرحه بالصيغة التالية: كيف يحدث للكائنات الإنسانية -التي لها علاقات قصيرة وفردية ومحدودة مع العالم- أن تعرف كل ما تعرفه؟⁽²³⁾".

وإذا كان هذا الإشكال يرتبط حصراً بقضية اكتساب ما يسميه شومسكي النحو الكلي، فإن القدرة النصية ترتبط بهذا الإشكال وتتجاوزه في نفس الوقت، لأن أفق القدرة النصية هو إنتاج النصوص وقراءتها وفهمها وتأويلها، أي إعادة التصرف فيها قرائياً وامتلاكها ثقافياً ومعرفياً، لكن هذه العملية لا تتحقق إلا إذا تصورنا النص بأنه كيان تجريبي *entité empirique* يتحقق فيه الفعل اللغوي

الذي لا يمكن فصله عن صاحبه وسياقه⁽²⁴⁾، لأن القدرة النصية تستتضم طبعاً القدرة اللغوية، لكن في أفق اشتغالها النصي والتناصي، أي في أفق اشتغالها من حيث هي وظيفة رمزية من جهة، ومن حيث هي توظيف ثقافي واجتماعي ورمزي من جهة أخرى.

ومن هذه الزاوية، يبدو أن القدرة النصية فطرية في جانبها اللغوي، لأن "القدرة الأولى للإنسان في نظر المتخصصين هي قدرة معجمية⁽²⁵⁾" كما يقول شال Challe، لكن القدرة النصية ثقافية في جانبها النصي، لأنها في نهاية المطاف حصيلة معاشة ثقافية للنصوص التي ارتضت المؤسسة الاجتماعية وملحقاتها المختلفة ترويجها، والارتقاء بها إلى مستوى التمثيلات الرمزية لأوجه الحياة، ولمظاهر وجود الإنسان في العالم.

انطلاقاً من هذه المعطيات، يتبين أن القدرة النصية لا تتمثل فقط في توفير عناصر الكفاية اللازمة لإنتاج النصوص المنسجمة، وتلقيها واستثمار منطقها الداخلي، وتجليات خطابها المفترض أو الممكن، بل هي مكون أساسي من مكونات التجربة الوجودية للإنسان من حيث هو كائن يحقق وجوده، ويعي علاقته بمحيطه وبالذوات التي تتقاسم معه هذا المحيط عبر التحققات النصية للغة، وفي هذا الإطار يقول ألان دوريمي Alain Deremetz: "دون أن نذهب إلى حدود الادعاء بأن علاقتنا بالعالم وبناء تمثلاتنا حوله، هي علاقة خاضعة جوهرياً لمبدأ النصية، يمكن التأكيد على أن كل نشاط للفكر ينتظم وفق نموذج نصي مستتضم، وأن ما نسميه ذاكرة جماعية ليست إلا مَنًّناً من النصوص المتداخلة التي تكوّن نسيجاً متجانساً، وأن كل إنتاج سيميائي جديد يمتح مكوناته من هذا النص المشترك الذي يخضع باستمرار لإعادة التعديل، والتحيين والبناء، وحتى الثقافة نفسها – إن نحن تصورناها من هذه الزاوية- لن تكون غير نص مفرط الضخامة mégatexte، وهو الذي يمنحنا خطاطاته، وجملته، ومركباته، وكلماته، ويقدمها لنا باعتبارها (تمثلات نصية للعالم)... وعبر النص، وعبره وحده يمكن تحويل العالم إلى كل متجانس، منظم، وواضح الملامح finalisé... إن النص هو الحيز الوحيد الذي يتحول فيه الإنجاز السيميائي للإنسان إلى موضوع، وإن كان على عالم اللسانيات أن يحدد القدرة الجوهرية المميزة للإنسان فستكون تلك القدرة هي القدرة النصية⁽²⁶⁾"

لكن في خضم التحولات اللسانية والمعرفية المتلاحقة، توجه الحديث نحو استحضار قدرات أخرى تتعالق مع القدرة النصية وتتمايز معها في نفس

الوقت، ومن بين هذه القدرات: القدرة اللسانية *compétence linguistique*، والقدرة التواصلية *compétence communicationnelle*، والقدرة الخطابية *compétence discursive*، وترى نويل سوران Noëlle Sorin أن هذه القدرات الثلاث ليست سوى تجليات للقدرة اللغوية *compétence langagière*، التي تعني "التأليف بين القدرة التواصلية، والقدرة الخطابية، والقدرة اللسانية، وفي إطار هذا التأليف يصبح بالإمكان الارتقاء بقيمة المعارف، ويصبح بالإمكان دمج كفايات القراءة، والكتابة، والتواصل الشفوي فيما بينها⁽²⁷⁾".

وعلى سبيل الاستطراد والمقارنة، يمكن القول إذا كانت القدرة النصية تتيح للمتكلم المستمع ممارسة مهارته في فهم وتأويل وإنتاج النصوص، فإن القدرة الخطابية -كما يؤكد ذلك جون بيير روبير- "تسمح لمستمعيها بتنظيم الجمل في مقاطع من أجل إنتاج متواليات متماسكة، وهي تعني:

- طريقة تنظيم الجمل ومكوناتها.

- القدرة على التصرف فيها بإتقان.

- القدرة على تدبير وبنية الخطاب على مستوى الموضوع، والتلاحم والاتساق، وعلى مستوى التنظيم المنطقي، والأسلوب، والفعالية البلاغية، ومبدأ المشاركة⁽²⁸⁾".

إن من بين ما يعنيه هذا الطرح العام هو أن مفهوم القدرة النصية يرتبط بتصور جديد للإنسان، أو على الأقل يمكن وصفه في كل الحالات بأنه تصور غير تقليدي، لأن إذا كان سقراط قد عرّف الإنسان بأنه حيوان ناطق، وإذا كان هذا التعريف السوقيراطي قد تحول إلى شبه مسلمة في مسار تاريخ الأفكار بشكل عام، ومارس تأثيره على مدى قرون في مجال الفلسفة والعلوم الإنسانية عامة، فإن القول بأن "القدرة الجوهرية للإنسان هي القدرة النصية" ينطوي معرفياً على تجاوز القدرة النطقية التي تحدث عنها سقراط وتعويضها بالقدرة النصية، أي الانتقال من التصور الطبيعي للإنسان إلى التصور الثقافي، وبدل ربط الإنسان بالقدرة الطبيعية (قدرة النطق) يصبح ضرورياً ربطه جوهرياً بالقدرة الثقافية (القدرة النصية).

ومن هذه الزاوية تحديداً، يمكن القول إذن إن مفهوم القدرة النصية يرتبط إبستمولوجياً بمفهوم الثقافة بمعناها الأنثروبولوجي، لأن القدرة النصية ليست قدرة غريزية عمياء، بل هي قدرة تتحقق في الإنسان من خلال فعل الاكتساب، ثم تتحول بعد ذلك إلى معطى سلوكي يتدخل كلما تعلق الأمر بتداول النصوص

أو إنتاجها أو تصنيفها أو فك ترميزها، ولعل هذا يتقاطع معرفيا مع ما أشار إليه إدغار موران Edgar Morin حين قال: "إن أسطورة الإنسان الفوق-طبيعي sur-naturel تكونت بالضبط في قلب الأنثروبولوجيا، والتعارض بين الطبيعة والثقافة اتخذ شكل أنموذج paradigme، أي شكل نموذج مفهومي متحكم في كل الخطابات التي بينها الإنسان⁽²⁹⁾".

إن مفهوم القدرة نابع من تمثّل خاص للإنسان، أي الإنسان القادر، وليست القدرة هنا بمعناها المادي المتحقّق تحقّقًا عيانيا قابلا للاختبار الفيزيقي، بل بمعناها الثقافي والرمزي والوظيفي واللساني، لأن "الناس يعيشون اليوم في عالم ترتبط فيه السلطة بالكلمات وليس بالأفعال، وفي هذا العالم تكون القدرة القصوى هي إتقان اللغة⁽³⁰⁾"، ولا يمكن إتقان اللغة إلا بوجود قدرة نصية مفترضة.

ومهما كان الأمر، فإن ما يبدو قابلا للاستنتاج في ضوء المعطيات السابقة هو أن القدرة النصية أضحت فرضية قائمة في صلب كل انشغال نظري حول اللغة، وحول علاقة الإنسان باللغة بشكل عام، لكنها "قدرة خاضعة للملاحظة أكثر مما هي قابلة للتحليل⁽³¹⁾"، لذلك فهي ترتبط ببعض "التساؤلات الميتافيزيقية" على حد تعبير سيرج دو ويت Serge de Witte، وذلك لأن "اللغة المتداولة تكتفي بتعيين مفهوم القدرة لكن دون تحديده، ورغم ذلك يبدو لنا جميعا أن هذا الأمر مقبول ومفروغ منه⁽³²⁾".

وما يثير الانتباه، هو أن مفهوم القدرة أصبح مفهوما مركزيا في العلوم الإنسانية بوجه عام، وفي مجال اللسانيات والدراسات الأدبية والنقدية بشكل خاص، والدليل على ذلك أن الكثير من الباحثين تحدثوا عن مفهوم القدرة من زوايا متعددة، وبتوصيفات مختلفة، ومن أمثلة ذلك⁽³³⁾:

- القدرة الدلالية compétence sémantique عند أريفي و آل Arrivé et Al (1986)، وبابلون وفابر Baylon & Fabre (1978).
- القدرة الخطابية compétence discursive، والقدرة الموسوعية compétence encyclopédique، والقدرة المنطقية compétence logique، والقدرة البلاغية-التداولية compétence rhétorico-pragmatique، والقدرة المقامية compétence situationnelle عند شارودو ومانغونو Charaudeau & Maingueneau (2002).

- القدرة النحوية compétence grammaticale عند شومسكي (1991).
 - القدرة الشاملة compétence universelle والقدرة الخاصة compétence particulière عند دوبوا وآل (1994) Dubois et Al.
 - القدرة الخطابية عند مانغونو (1996)
 - نظرية القدرة théorie de la compétence عند موشر وروبول (1994) Moeschler & Reboul
- وإذا كان الأمر كذلك، فإن القدرة النصية ليست إلا الوجه الآخر لقدرات أخرى يفترض أن الإنسان يتوفر عليها، ويُشغّلها من أجل التواصل والتفاعل والحلول الفاعل في العالم، وذلك لأن "معنى أن يكون الإنسان حياً [كما يقول فرناندو سافاطير] هو أن يسكن عالماً لا تكون فيه حقيقة الأشياء متعلقة بما تبدو عليه ظاهرياً، بل بما تنطوي عليه من معنى، ومعنى أن يكون الكائن إنساناً هو أن يفهم أن الواقع مَهْمًا كان لا يتحدد بنا نحن، بل يتحدد بقدرتنا على فهمه، وهذه هي قضيتنا، وهي أيضاً اختيارنا⁽³⁴⁾".

إن مفهوم القدرة يرتبط عند بيرنار كيلكوجو Bernard Quelquejeu بسؤال فلسفي هو: ما هي طبيعة القدرة التي يتوفر عليها الإنسان القادر l'homme compétent؟ ومن له سلطة الاعتراف له بها؟ إن الفلسفة تبني نفسها من خلال تناول مثل هذه القضايا، لأنها تضع نفسها في موقع يتقابل مع السفستائيين والخطباء المتحذلقين الذين يقدمون أنفسهم باعتبارهم صناع الكلام الذي يمنح السلطة في الدولة⁽³⁵⁾، وربما كان الحديث عن القدرة النصية والقدرة الخطابية وأخواتها من القدرات الأخرى حديثاً عن تلك السلطة المتوارية والمخالطة التي تفعل فعلها دون التصريح به، وتمارس لعبتها الأبدية بألف لون أو ترتيب أو إجراء.

ما الذي ننتجه حين نُشغّل قدرتنا النصية؟ هل ننتج مجرد نصوص محتقنة ببلاغة الكلمات؟ أم أننا نعيد إنتاج أنفسنا لكي نتاح لنا إمكانية التناسل الأنطولوجي مع العالم الذي نجازف باحتوائه مع كل مشروع نص أو كلام؟ هل ننتج نصوصنا ونحن في حالة اتصال معها أم في حالة انفصال عنها؟ هل ننتج النصوص إنتاج هوية وحقيقة أم أننا ننتجها إنتاج مطاولة وابتغاء؟ وبمعنى آخر مفرط في التجريد: هل نحن الذين ننتج النصوص عبر قدرة نصية متوهمة أو مفترضة أم أن النصوص هي التي تنتجنا، وتزودنا في نهاية المطاف - بكل ما لدينا من مخزون وعي وحسيّة إدراك؟ إن "النص - كما تقول مادلين شابسال Madeleine Chapsal - هو المادة الإنسانية وقد خضعت للتنظيم الذي أجراه

عليها العقل⁽³⁶⁾، "لكن في مجال النص والخطاب ليس العقل قدرتنا السيادية الوحيدة، بل في مكان ما من كيائنا الإنساني المتشبع بالرغبة الهوسية في الكلام، وبناء صرح النصوص والخطابات، توجد قدرة نصية كامنة، توجد فينا وجود تحفز واشتهاء، أو وجود تَكْثُّمٍ ومكابدة، ومع كل نص ننتجه أو نطاول عوالمه بالقراءة أو الاستماع نكون قد عبرنا -زاحفين أو مهرولين- بعضا من مَهَامِهِ الْقَفْرِ الذي يحجبنا عن ذواتنا، ويحجب ذواتنا عن العالم وجوهر الكينونة والإنسان، لأن "النص حين يوفر لنا مادته الخام المصنوعة من الرموز والعلامات المكتوبة، يتيح لنا أن نرتقي عبره ومن خلاله من حالة الفهم البسيط إلى حالة الفهم الأجل⁽³⁷⁾"، على حد تعبير الفيلسوف والكاتب الأمريكي جيروم أدلر مورتيمر.

الهوامش:

- 1 - Joseph Joubert, *Carnets t.2*, éd. nrf/Gallimard, Paris, 1994, p.248
- 2 - Jean Toussaint Desanti, *l'infini mathématique*, encyclopedia universalis, édition électronique, version 9.
- 3 - Albert Jacquard, *Petite philosophie à l'usage des non-philosophes*, , Éd. Québec-Livres, p. 178
- 4 - Véronique Castellotti, *La notion de compétence en langue*, in Notions en question (revue), n 6, septembre 2002, p.9
- 5 - Bernard Hillaud, *De l'intelligence opératoire à l'historicité du sujet*, in La compétence, mythe, construction ou réalité? par Par Francis Minet, Michel Parlier, Serge de Witte, éd. L'harmattan, 1994, p.45
- 6 - Vincent Kaufmann, *La mobilité comme capital?* in, *Mobilités, fluidités--libertés?* Sous la direction de Bertrand Montulet & Vincent Kaufmann collection Travaux et recherches, Publications des Facultés universitaires Saint-Louis Bruxelles 2004, p.31
- 7 - Louis-Jean Calvet; *Compétence et performance, linguistique*, encyclopedia universalis, édition électronique, version 9.
- 8 - المرجع نفسه.
- 9 - Marie-France Ehrlich, *Mémoire et compréhension du langage*, Presses Universitaires de Lille, 1994, pp.63-64
- 10 - Karl Canvat , *Enseigner la littérature par les genres: pour une approche théorique et didactique de la notion de genre littéraire*, éd. De Boeck Duculot, 1998, p.70

- 12 - المرجع نفسه، ص. 64.
- 13 - Frédéric Calas, *Cohérence et discours*, Presse de l'Université Paris-Sorbonne, 2006, p.96
- 14 - نفس المرجع، ص. 96
- 15 - Marie-France Ehrlich, *op. cit*, p.64.
- 16 - D.Bain, P.Bronckart, B.Scheneuwly, *Typologie du texte français contemporain*, Bulletin CILA, 41, 1985, p. 7-43.
- 17 - نفس المرجع، ص 64-65
- 18 - Jean-Michel Adam, *Éléments de linguistique textuelle: théorie et pratique de l'analyse textuelle*, p. 108
- 19 - Christopher Leigh Connery, *The empire of the text: writing and authority in early imperial China*, 1998, p. 8
- 20 - Denis Apothéloz, *Rôle et fonctionnement de l'anaphore dans la dynamique textuelle*, éd. Librairie Droz, Genève-Paris, 1995, p. 9
- 21 - Marina Chini, *Ordres marqués et perspective du locuteur en italien L2*, *Revue française de linguistique appliquée* 2/2002 (no 72), p. 117-137.
- 22 - Marc Souchon, *Lecture de textes en le et compétence textuelle*, *Acquisition et Interaction en Langue Étrangère* (revue), n° 13 - 2000
- 23 - Michael Albert, *la Grammaire universelle et la Linguistique*,
- 24 - Bronckart, J.-P.. *Activité langagière, textes et discours*. Delachaux et Niestlé, Lausanne, Paris. 1996, p. 39
- 25 - Challe, O. 2000. *Le français de spécialités*, Paris : CLE International, 2000, p. 79
- 26 - Alain Deremetz, *Le miroir des muses: poétiques de la réflexivité à Rome*, éd. Presses Universitaires du Septentrion, 1995, p.29
- 27 - Noëlle Sorin, *La compétence langagière et les savoirs en jeu*, in: *La notion de compétence en éducation et en formation: fonctions et enjeux*, sous la direction de: Rodolphe Toussaint et Constantin Xypas, l'Harmattan, 2004, p. 182
- 28 - Jean-Pierre Robert, *Dictionnaire pratique de didactique du FLE*, nouvelle édition revue et augmentée, éd. Ophris, Paris, 2008, p. 73
- 29 - Edgar Morin, *Le paradigme perdu*, Points n°109, p.22
- 30 - Muriel Barbery, *L'élégance du hérisson*, éd. Gallimard, 2006, p.56
- 31 - Serge Bouchard, *L'enseignement*, in *Du pipi, du gaspillage et sept autres lieux communs*, Boréal, 2001, p.110
- 32 - Serge de Witte, *La notion de compétence, problèmes d'approche*, in: *La compétence, mythe, construction ou réalité ?* Par Francis Minet, Michel Parlier, Serge de Witte, (chapitre I), Francis Minet, Michel Parlier, Serge de Witte, éd. L'harmattan, 1994, p.45
- 33 - نقلا عن موقع المعجم الفرنسي الإنجليزي للمصطلحات اللسانية :terminologie linguistique

http://www.sil.org/linguistics/Glossary_fe/glossary.asp?entryid=1637&englishid=19345

34 - Fernando Savater, *Pour l'éducation*, trad. Hélène Gisbert, Rivages poche n°314, 2000, p.42

35 - Pierre Collin, *le pouvoir de la philosophie*, in: *Philosophie*, publié par Institut Catholique Paris / Fa, p. 147,

36 - Madeleine Chapsal, *Oser écrire*, Éd. Fayard, p.255

37 - Jerome Adler Mortimer, *Comment lire les grands auteurs*, trad. Louis-Alexandre Bélisle , Le Club des Grands Auteurs, 1964, p.43.